ميـــلاد . . . !

للأديب محمد طه الحاجرى

لم يكد الفجر يستفيض من وراء الأفق ، كما يستفيض الأمل الباسم من وراء الضلوع ، حتى استيقظ أهل ذلك البيت الصغير من إغفاءتهم ، ونفضوا عنهم بقايا أحلامهم ، واستقبلوا نور الفجر الساحر فأشرقت به قلوبهم ، وانبسطت له وجوههم ، ثم لم يلبثوا حتى كانوا يحفون بفتاة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، تئن أنيناً خافتاً لا يكاد يتجاوز نطاق صدرها ، وقد نطقت حركاتها وأسارير وجهها بما يعتلج فى أحشائها من ألم ، وما تبذله لقاءه من جهد ؛ فكانت تنحنى إلى أمامها — من ذلك الألم المض — فتعتمد على يديها ، ثم ترفع كفها لتخفى دموعا تترقرق فى عينيها ، والسيدتان الجالستان إلى سريرها تحاولان التسرية عنها ، وتخفيف همها ، وطرد الأشباح المفزعة التى كانت تساور خيالها ، وتضاعف من آلامها ؛ ولم يمنعهما وقار السن من أن يصطنعا فى الحديث شيئاً من الفكاهة والمرح ، يبدد وجوم الموقف ... ويبعد شياطين الوساوس

أما ذلك الرجل الفاضل الذى كان ينظر اليها ، وإن وجهه ليعبر عن شتى العواطف من الألم والعطف والاشفاق والرجاء ، فانه لم يلبث أن غلبته عواطفه ، فقام من مكانه ، وذهب إلى غرفة أخرى ، وأخذ يدعو الله ويضرع اليه أن يكون فى عون هذه المسكينة التى تعانى — للمرة الأولى فى حياتها — ما تعانيه كل امرأة مثلها خلقت لتكون وسيلة امتداد النوع الانسانى

ترى ماذا كان يجول فى خاطر ذلك الرجل الذى لبث زماناً لا يحس بعاطفة الأبوة إلا حنيناً اليها ، ورغبة قوية حافزة فى الاشتمال عليها ، وها هو ذا الآن يوشك أن يكون أباً كما صار أمداده من قبل ، وها هى ذى رجولته توشك أن تستوى وتأخذ كمالها بهذا القادم المنتظر ؟ ؟

سبحانك اللهم ! جعلت فى الأيثار كمال الرجولة ، فاتسمت الأثرة بالطفولة ، ثم جعلت الرجولة درجات بعضها فوق بعض : هذا زوج يكد لنفسه ولغيره ، وهذا أب يرى خير بنيه فوق خيره ، وهذا عميد أسرة يتولى أمرها ويكدح لمجدها وينافح من دونها ، وهذا زعيم أمة قد اضطلع بشؤونها ، وسهر على شجونها ، وباع ماله ونفسه فى سبيلها ، فبلغ الذروة فى الرجولة ، وأشرف على أقصى غايات الكمال الانسانى

أيقولون إن الانسان أنانى بطبعه ؟ فما الذى يدفع بالرجل الكامل لأن يكون زوجا يشرك امرأته فى أسباب حياته ، وأبا يخلط بين غيره وذاته ، وقائداً يضحى بنفسه فى سبيل أمته ، ومصلحا ينير لغيره فيطفىء من ذبالته ؟ إنما هى غريزة التكمل ، فاذا ضعفت تلك الغريزة ، فرغب الشبان عن الزيجة ، وانصرفوا عن بناء الجماعة ، واحتفلوا بخيرهم الذاتى وحده ، فقد رجعوا على أعقابهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، وانعكست سنة الخليقة فيهم ، فعادوا أطفالاً ، وكان من الطبيعى أن يكونوا رجالا

ترى ماذا كان يجول فى نفس ذلك الشاب الذى نيف على الثلاثين ، وقد جلس يتمتم بالدعاء ، ويرفع يديه إلى السماء ، فى زى شرق أنيق ، ومحيا مشرق وضىء ، لولا ما يرتسم عليه من خطوط فيها من معنى الألم قسط موفور ؟

إنما هى مشاعر مبهمة لا تكاد تبين أو تتعين ، مترادفة ينسخ لاحقها سابقها ، مختلطة بين الماضى والحاضر والمستقبل ، لا تكاد تستقر على عهد من العهود الماضية ، حتى تحط على آخر فى حدود الغيب المحجوب ؛ ولا يكاد يألم لما تعانيه زوجه من ألم المخاض ، حتى تنسخ هذه الغاشية موجة من النور البهى الساطع المنتشر من عالم الغيب على نفسه الحائرة بين عالم الغيب وعالم الشهود

أما تلك المرأة الصغيرة فلعل خواطرها كانت حزينة مبتئسة ، أكثر منها فرحة مستبشرة ، ملتفتة إلى الوراء أكثر من اتجاهها إلى الأمام ؛ تنظر إلى الماضى الماثل أمام قلبها ، فتغرورق عيناها بالدموع ، فتحاول إخفاءها عمن جلس حولها ؛ ثم يعروها الألم فتئن وتتوجع وتنحنى انحناءة تستل كل ما فى النفس من معانى الاشفاق والعطف والرحمة ، وتبعث فى القلب كل مشاعر الأسى والوجيعة ؛ ثم تنظر حولها فتعود بها الذاكرة إلى الفقيدة العزيزة التى فقدتها منذ بضعة من الشهور قليلة ، فلا تزال صورتها تلقاءها ، متألقة بنور الحب ، محفوفة بمعانى الدموع . . . أمها التى لم تكن تشعر بعطف غير عطفها ، ولم يكن لها من القلوب

غير قلبها ، ولم تكن تدرى من صور الحب غير صورة حبها . كانت تلك الفتاة وحيدتها ، فكانت تستأثر بعطفها وحنانها . ثم ضرب القدر ضربته الصارمة القاضية ، وانتزعها انتزاعة عنيفة قاسية ، حين كانت ترجو وترقب أن تستمتع بمحفيدها وامتداد وجودها

إيه يا روح الأم المرفرفة على سرير فتاتها ! امسحى على قلب هذه المسكينة بيدك الروحية الطاهرة ، وانشرى عليها من ذلك الضوء الذى يغمر ذاتك المجردة ، وابعثى فى قلبها الطمأنينة التى تسود عالم الروح الأسمى ، وانقليه فى شفقة الأم الرحيمة ، ورقة الروح الكريمة ، من الماضى القريب الزاخر بمعانى الأحزان والآلام ، إلى المستقبل الزاهر بورود الآمال والأحلام . . !

* * *

مضى الزوج الى مصلاه ، يلتمس الروح والطمأنينة فى جوار ربه ، ويعوذ به من القلق الذى جعل يعبث بقلبه ، ويستروح نفحات الملأ الأعلى التى تتأرج فيه . ثم عاد الى بيته فاذا هو يتلألأ بمعانى الفرح الطروب ، كأن الحياة قد أفرغت فى هذه البقعة الصغيرة كل ما تدخره من السرور والبهجة . لشتان ما بين هذه الساعة والتى قبلها فى رأى قلبه ! فقد امتلأ الفراغ الذى كان يشعر به بين جنبيه ، والذى كان يشعره أن حياته فارغة لا قيمة لها ، والذى كان لا يملؤه إلا الهم والابتئاس حين يرى رجلاً يداعب طفله ويدلله ، فتثور غريزته المحرومة ، وتضطرب فى صدره أيما اضطراب . . . لقد ابتدأ منذ اليوم حياة الأبوة المجيدة والرجولة الصحيحة ، وأصبح يشعر لوجوده بكيانين : أما أحدهما فقد بلغ الذروة ، وأما الثانى فلا يزال فى سفح الحياة يحبو ويتشبث ... فأى سعادة تغمر قلبه ! وأى صورة من الفرح والغبطة ترتسم على وجهه ! لقد ظفر اليوم لنفسه بالحياة فى أنضر صورها ، فما كهذا اليوم فى حياته كلها

وأما الأم فقد تنزلت عليها رحمة ربها ، فنسخت تلك المعانى الحزينة من قلبها ، وأقبلت عليها الحياة الجديدة المنبعثة من وليدها ، فسحت كل ما أيق الموت من أثر فى نفسها ، وقد استغرقت كل عواطفها فى تلك الفلذة المشتقة منها

* * *

إيه أيها الوليد الملقى فى مهده فى جو من الغموض والابهام وفى هالة من الحب والرعاية والاعظام ! ما هو ذلك الشأن الذى جعلك مناط الأمل ومعقد الرجاء ، وقد تكون سبب الشقوة ومستقر العناء ؟ وما هى تلك الخطورة التى جعلت مقدمك بين التهليل والتكبير ، وجعلت استهلالك مقروناً بهتاف الفرح وصوت البشير ؟ وما أنت فى ذلك الوجود الزاخر إلا ذرة أو أقل من ذرة فى عباب المحيط الواسع ! ألأنك تمثل الحياة فى شتى أشكالها ؟ ألأنك تحمل بين جنبيك ميراث الانسانية جميعها ؟ ألأنك الوحدة التى يقوم عليها بناء الكون بما يضم من أشتات ويجمع من مفارقات ؟ قد يكون كل ذلك صحيحاً لا ريب فيه . ولكن سنن الوجود ونواميس الخليقة قد طبعت على التحتيم الذى لا مفر منه ، والجبر الذى لا اختيار فيه ، حتى ليعد من العبث الذى يهيم به العقل أحياناً أن يحاول تعليلها ، أو يجتهد فى تأويلها . فأنت أنت كما أراد الله أن تكون ؛ وهذا الاحتفال الذى يحف موكبك العظيم هو جزء من النواميس التى قدرها الله لنظام الوجود ، ولا مبدل لكلمات الله .

محمد طه الحاجرى

لجنة التأليف والترجمة والنشر

ذكرى أبى الطيب

بعد ألف عام

كتاب ألفه فى بغداد الدكتور عبد الوهاب عزام الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية ذكرى للعيد الألفى لأبى الطيب المتنبى ، وفصل فيه تاريخ الشاعر وأبان عن جوانب مهمة مجهولة من سيرته وأدبه ، وحدد المكان الذى قتل فيه أبو الطيب وزاره وصوره ، فجاء الكتاب أوسع وأدق ما كتب عن الشاعر إلى يومنا هذا

والكتاب مطبوع بمطبعة الجزيرة ببغداد على ورق جيد ويقع فى ٤٤١ صفحة من القطع المتوسط ويباع فى دار اللجنة ٩ شارع الكرداسى بعابدين والمكاتب الشهيرة وثمنه عشرون قرشاً عدا أجرة البريد